

عيسى اسكندر المعلوف

المؤرخ اللبناني

بتناسبة ذكراه السابعة في ٢ تموز ١٩٦٣

بقلم أسد رستم

ابصر النور في قرية كفرعقاب بالقرب من بسكتنا لبنان في السنة ١٨٦٩ . وتلقى علومه الابتدائية في كفرعقاب في مدرسة الإرسالية الاسكوتلاندية ثم انتقل الى مدرسة هذه الإرسالية العالية ، في الشوير فأكمل علومه الثانوية فيها واتقن العربية، تعلم الانكليزية ومبادئ الفرنسية. وعلم في المدرسة البطريركية الارثوذكسية في دمشق ١٨٩٠ وفي مدرسة كفتين الارثوذكسية ١٨٩٣ ثم في الكلية الشرقية برحلة ١٩٠٠ . وأنشأ غريغوريوس الزابغ بطريرك انطاكية وسائر اشرق مجلة - النعمة - في السنة ١٩٠٩ فأسند قسم الابحاث التاريخية فيها الى صاحب الترجمة . ولدى انتهاء الحرب العالمية الاولى انشأت حكومة فيصل العربية شعبة للترجمة والتأليف فكان الاستاذ المعلوف من اعضائها . ثم قام مجمع علمي عربي في دمشق في عهد الانتداب، كان المترجم له من اعضائه العاملين . وفي السنة ١٩٢٨ انتدب الاستاذ المعلوف لعضوية المجمع العلمي اللبناني ثم اصبح في السنة ١٩٣٦ عضواً عاملاً في مجمع فؤاد الاول للغة العربية في القاهرة ، وبعد ذلك بستين اكرمته حكومة البرازيل فجعله عضواً مراسلاً لأكاديمية التاريخ والآداب البرازيلية . وجاءت الحرب العالمية الثانية واشتدت وطأة - الربو - على صاحب الترجمة فعضى وقته منتقياً مدققاً في بيته مشياً في بيروت ومصيفاً في زحلة .

وأقدم مصنفاته كما يظهر كتابه في الكتابة ضننه أنجائاً في الخط واللغة والانشاء. وطبعه في أربعة أجزاء صغيرة في السنة ١٨٩٥ . ثم عني بتاريخ أسرته فنقل من قرية الى قرية ودير الى دبر ومكتبة الى مكتبة وأطل في السنة ١٩١١ بتاريخ بلدته زحلة في ٢٩٨ صفحة وأصدر في هذه السنة عينها مجلة

الآثار فاستمرت ثلاث سنوات متتالية ثم احتجبت في أثناء الحرب العالمية الأولى وظهرت سنتين بعدها . وفي السنة ١٩١٩ ألقى المعلوف محاضرة طوييلة في الطب العربي في المعهد الطبي العربي في دمشق وطبعها في كراس كبير في ٦٨ صفحة . وأردفها بمحاضرة ثانية في تاريخ الطب قبل العرب نشرها في السنة ١٩٢١ . ثم انتهز فرصة انعقاد المؤتمر الطبي في جامعة بيروت الاميركية في السنة ١٩٢٥ فألقى فيها محاضرة ثالثة في أشهر الاسر الطيبة وأشهر المخطوطات العربية في الطب . ثم عني بالتراجم فصنف رسالة في سيف الدولة في السنة ١٩٢٧ ورسالة في سيرة البطريق الانطاكي غريغوريوس الرابع في السنة ١٩١٩ . ثم كتاباً في فخر الدين ابن معن في السنة ١٩٣٤ في ٤٤٨ صفحة . وأردفها في السنة ١٩٤٤ بالقرر التاريخية في الاسرة اليازجية في ١٢٨ صفحة .

ومن مصنفاته التي لا تزال مخطوطة ، تحفة الكاتب للعرب والكاتب ، والاختيار المدونة والمروية في تاريخ الاسر الشرقية ، وشهد القريحة في المقطعات البليغة الفصيحة وأهم خزائن الكتب العربية ومعجم الالفاظ العامية والدخيلة ، ومعاوض الدرر في أدباء القرن التاسع عشر والدر الثمين في أدباء القرن العشرين ، والمكبة التاريخية ، ونفائس المخطوطات ، وشرح المتن في تاريخ قضاء المتن في لبنان ، وتاريخ وادي التيم ، وجبل القلون ، وديمية الحرب الكبرى ، وشرح الامثال العربية العامية ، وذيل في شعراء النصرانية وهو استدراك على ما فات الاب لوس شيخو من شعراء النصرانية وغير ذلك . وهو مفيد جداً وجدير بالحفظ في دار الكتب اللبنانية الرسمية .

وكان ، رحمه الله ، عالي الهمة ، ماضي العزيمة يركب ظهور العوائق ولا يفوته مطالب ، وكان يفرق في البحث ويمن في التنقيب ، ويستقصي في التنقيب . وكان سريع الحفظ ذكوراً يتلو من ظهر قلبه كأنما يقرأ في كتاب مسطور . وعلى الرغم من قوة ذاكرته وببعمه عن النسيان فإنه سريع التدين . ومصنفاته التاريخية غزيرة المادة جزيلة المباحث واضحة التفسير جمة الفوائد . ولكنها لغزارة مادتها وكثرة مباحثها لم تكن دائماً مطردة التنسيق .

فكتابه (دواني العطور في تاريخ بني المعلوف) هو أقرب الى موسوعة صغيرة تضم معلومات شتى في مواضيع متنوعة لا علاقة لبعضها بموضوع الكتاب .

وقد قال هو في ديباجة هذا المصنّف وتحت العنوان ما نصه : كتاب تاريخي اجتماعي عمومي يحتوي على وصف الوقائع والعادات والاخلاق والشؤون العمرانية وأصول الأسر الشرقية وفروعها ومشاهيرها ومواطنها ومباحث علمية وجغرافية واحصائية . ونحن نرى انه لو أحسن التنسيق ، وأحكم الحدود وحصر كلامه في هذا الكتاب بموضعه لاضاع علينا فوائد حمة لا نجدّها اليوم الا في هذا الكتاب . فدواني القطرّف في تاريخ بني الملوّف هو في الواقع موسوعة في أحوال لبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر كما وعاشا شيوخه في أواخر هذا القرن . وفضل عيسى اسكندر الملوّف في تدوين ما سمع كبير جداً . ولو لم يسع ويدون لضاعّت أخبار وأخبار وطست آثارها ومقالات المؤرخ الملوّف في مشاهير الطائفة الارثوذكسية التي نشرها تباعاً في مجلة النعمة هي في حد ذاتها أكثر لا يفنى ومادة لا يستغني عنها كل من يعنى بتاريخ الكنيسة الجامعة في سورية ولبنان وفلسطين في العصور الوسطى والعصور الحديثة . وبعض موادها من نوع المواد التي سجلت في دراني القطرّف مأخوذة من اوراق قديمة سلطت بحسن الدهر عليها ومن صدور رجال طويت أخبارهم . ولكن بعضها الآخر ينم عن صبر وثبات وتفتيش وتمحيص ونقد وسلامة استنتاج . ومن هذه مقالته في عداقه ابن الفضل وما نقله في القرن الحادي عشر عن اليونانية والسريانية الى العربية وردده على الاب لويس شيخو في بعض ما ذهب اليه خطأ في هذا الموضوع . ومن هذا النوع أيضاً رسالته في الشيخ سليمان بن حسن الذي دخل في النصرانية في اوائل القرن الرابع عشر واصبح أحد أساقفها . ومن رسائله هذه أيضاً رسالته في أسقفية حوران فانها جريئة الفائدة لما تحتوي عليه من نوادر الاخبار ، وقد لا يجد المؤرخ مجموعة من المعلومات التاريخية عن زحلة أكمل مما ورد في كتاب عيسى اسكندر الملوّف عن تاريخ هذه البلدة . ولكنه لم يعمّ بنقد أخبارها عنايته بنقد الاخبار التي جاءت في رسائله المشار اليها أعلاه . وقرأ لنا رحمه الله ، فصلاً من كتابه في الاسر الشرقية فأثار اعجابنا بسعة اطلاعه وطول أناته وصبره على التفتيش والجمع والتدوين . وكان يعدّ بمصنّفه هذا ويعتبره أعظم ما آتت ولا نعلم اذا كان أكمله قبل وفاته ولكنه من المصنفات النادرة التي يجب نشرها .